وصف البحترى

أبو تمام والمتنبي حكيمان والشاعر البحترى

(١) فاق صاحبيه بالوصف

عرّف المعرى كلمة الشاعر ليخصصها بالبحترى فينفيها عن صاحبيه ، وقد قصر البحترى عن المتنبي فى المديح والهجاء ، وقصر عن أبي تمام فى الغوص على المعانى العميقة ، وقصر عن كليهما بالحكم ، ولم يبرز الثلاثة فى الفنون الأخرى وانما برز المتنبي فى حكمه وعظمته ، وابو تمام فى معانيه وصنعته ، والبحترى فى وصفه، فكان شاعراً دونهما لان الشعر يعتمد على الخيال فى مادته وميدان الوصف خيال رائع .

وسنكتفى الآن بوصف الشاعر دون التعرض الى المقابلة لان الموضوع وصف البحترى .

(٢) أثر به جمال الطبيعة فى شبابه وجو العراق بعد ذلك

وُلد البحترى فى منبج وهى بلدة قرب حلب «عذبة الماء طيبة الهواء قليلة الادواء ليلها سحر كله» ، فكان لذلك الماء العذب أثر فى صحة البحترى ، ولذلك الهواء الطيب أثر فى صفاء ذهنه ورقة خياله .

وعاش البحترى فى أحضان الطبيعة فكانت لخياله أماً رؤوماً ، ودرس فى كتابها الواسع وكتاب الطبيعة أكبر معين للخيال الرائع ، وغذاه الشباب الغضّ والشباب

زمن العواطف الثائرة ، والحسّ الملتهب ، والشعور القوى ، واذا لم تساعد الطبيعة وكتابها ، والشباب وعواطفه ، والصحة وجودتها ـ أضف اليها المرأة والعقل النابغ ـ فى خلق الشاعر فليس فى الدنيا شاعر .

أثرت به منبج ، وجمال مناظرها ، وطيب هوائها وصفاء جوها فذكرها فى نعمته وشبه نعيمه بها ، واتخذها معيناً لرسومه ، قال :

لا أنسينّ زمناً لديك مهذباً وظلالَ عيشٍ كان عندك سجسجِ
فى نعمةٍ أوطنتها وأقمت فى أفيائها فكأننى فى منبجِ

وذهب البحترى الى العراق قبل أن تؤثر به ثقافة الشام الحكيمة فتأثر بالأدب العراقى ورق خياله فوصف فى ما وصف الخمرة ورعا لم يشربها ، ولكنها الطابع الذى ألصقه أبو نواس على الشعر العراقى . قال البحترى :

من مدام تقولها هى نجم أضوأ الليل أو مجاجة شمسِ
أفرغت فى الزجاج من كلّ قلبٍ فهى محبوبة الى كلّ نفسِ
وترهمت أن كسرى ابرويـ ـز معاطىّ والبلهنذ أنسى

ولعل البحترى لم يشرب الخمرة منفرداً فى الايوان ، ولعل له من همومه عازفاً عنها ، ولكننا لا نشك فى أنه وصفها وأجاد فى ذلك الوصف ، فهى نجم يضىء الليل وهى شعاع تمجه الشمس من فيها فكأنه جسم حى بلغ من قوته أن يمج الشعاع فيصل الى الأرض وأجل الصور أحياها وهذه فى العراق أحيا منها فى الشام .

ولا تنس أن العقل عاجز الى اليوم عن ادراك تلك القوة التى تحمل شعاع الشمس الى الأرض ، وتلك القوة التى تدفع النور بتلك السرعة العجيبة ، فأين علم العلماء من خيال الشعراء ؟

والخمرة عند مدمنيها لذيذة محبوبة فكأنها مزجت بكل قلب وأفرغت من كل نفس ، وأحب شىء الى الانسان نفسه ، وأيسر شىء يحمله الى مراتب الملوك ومنازل العظماء قدح من الخمرة ، فكأنه أمير على أمير المؤمنين وكأن كسرى نديمه والبلهنذ أنيسه !

ورأى البحترى مواكب الخلفاء وعظمة المتوكل مما لم ير مثله فى الشام فوصف

ذلك وكأننا نراه ، وهنا سرُّ عظمة البحترى : يصف فكأننا بعد ألف سنة ونيف نرى موكبَ الخليفة ونسير خلفه ودليلنا الشاعر ، قال :

أظهرتَ عزَّ الملك فيه بمحفلٍ ... لجبٍ يحاط الدينُ فيه ويُنصرُ
خلنا الجبال تسير فيه وقد غدت ... عدداً يسير بها العديدُ الأكثرُ
فالخيل تصهل والفوارس تدعى ... والبيض تلمع والأسنة تزهرُ
والأرض خاشعة تميد بثقلها ... والجوُّ معتكر الجوانب أغبرُ
والشمس طالعة توقد فى الضحى ... طوراً ويطفئها العجاج الأكدرُ
حتى طلعت بنور وجهك فانجلى ... ذاك الدجى وانجاب ذاك العثيرُ
ورنا اليك الناظرون فاصبعٌ ... يومى اليك بها وعينٌ تنظرُ

تلك الجبال السائرة وذلك الضجيج نجده فى معانى البحترى ، ونسمعه فى ألفاظه ، وفى تلك الصورة نرى الأرض خاشعة لمقام الخليفة تكاد تميد بثقلها ، وذلك الغبار يطفىء الشمس فيجلوه وجه الخليفة حين يطلع . صور متتابعة قوية نسمع بين سطورها صهيل الخيل وادماء الفرسان ولمعان السيوف وضجيج الجماهير حتى اذا ظهر الخليفة تهيبت الخيل اجلالاً ، وسكت الناس اعظاماً وأشاروا بأصابعهم حتى لا يبقى من تلك الصور القوية المتتابعة غير أصبع يومى بها وعين ترنو ، وحتى نكاد نشارك القوم متأثرين ببلاغة الشاعر .

(٣) أثر به حنينه الى وطنه وحبه علوة

حنَّ البحترى الى وطنه وانما حنّ الى ذلك الليل البارد فى منبج ، والى تلك المناظر البهجة التى كانت تجود عليه بها الطبيعة ، والى أولئك الأهل الذين عرف البحترى معهم طيب العيش وهناءه بل حن الى تلك الحرية الطبيعية الواسعة التى لا يجد بعضاً منها فى بغداد ، والى ذلك الفضاء الواسع يرسل به خياله فلا يضعفه مال أو قيود ، ولا يقف فى وجهه حسد أو وشاية ،وقد أثر ذلك الحنين فى فؤاده فاستلَّ من خياله صوراً جميلة لم يشاركه فيها شاعر وإن تحرجت فقلْ لم يدانه غير واحد أو اثنين .قال يحن الى الشام :

شاقنى بالعراقِ برقٌ كليلُ ... ودعانى للشام شوقٌ طويلُ
ولو أنى رضيتُ مقسوم حظى ... لكفانى من الكثيرِ القليلُ

ولقد صدق البحترى فلو لم يكن من الطمع وحب المال على جانب عظيم لترك العراق وعاد الى منبج يحيا بها حياة الهناء والسرور ، ولو عاد الى الطبيعة لرق خياله على رقته ، وزاد اتساعاً على سعته ولكن مَن يدرى ؟ ربما كان ينصرف الى درس الطبيعة فلا يخرج عن دور الطالب والناس ينتفعون بقليل من العلم يظهر ، ولا ينتفعون بكثير من العلم يضن به صاحبه خوفاً أو رهبة .

وأحب البحترى فى وطنه علوة فلم ينسها فى العراق ، وقد أثر به حبها وأضرم فى صدره نار الوجد ، وعلمه الشكوى ، وأثر بخياله فأرقه ، وليس كالمرأة مرق للخيال وليس كالحب الأول الثابت مؤثر فى الشعور ، وليس كحب الشباب الذى لا تجرفه الأهواء عامل فى العاطفة .

وكثيراً ما ذكر البحترى علوة فى نعيمه وكثيراً ما تشوق ، قال :

طيف لعلوة ما ينفك يأتينى يصبو الى على بُعدٍ ويصبينى

وربما كان لبخل البحترى أثر فى اكتفائه بطيف علوة وعزوفه عن ملاهى بغداد وعبثها ومجونها ، ولعله كان صادقاً فى حبها فلمَ نظلمه ؟ ومهما كانت الأسباب فقد ذكرها كثيراً ، قال :

وما أنس لا أنس عهدَ الشبا ب وعلوةَ إذ غيرتنى الكبرْ

وقال : عرِّج على حلب فحىِّ محلة مأنوسة فيها لعلوة منزلُ

(٤) البحترى صلة بين أدبين

كان فى العصر العباسى أدبان متميزان : أحدهما أدب العراق ويمتاز برقة خياله واسترساله مع الطبع وتأثره بالخمرة والغلمان وبما أدخله أدباء الفرس على الأدب العربى من أدبهم ، وبامتزاج الثقافة الفرسية بالثقافة العربية امتزاجاً نشأ منه ثقافة جديدة تبعد عن قوة الجاهلية وصلابة صدر الاسلام ، فكان هذا الأدب أدب اللهو والخيال .

والآخر أدب الشام ويمتاز بجزالته العربية — وشعراء الشام كلهم عرب — وبتثقيفه وحكمه ، وقد تأثرت بثقافة العرب فى الشام وثقافة اليونان الى حد ، ولم يعرف العرب أدب اليونان بل عرفوا علمهم وفلسفتهم ومنطقهم ، فظل أدب الشام

أقربَ الى العرب لقربه من الحجاز ولنسب شعرائه ، فكان أدبَ الجد والجزالة والعقل .

ولسنا نفي البحث حقهَ فى وصف البحترى اذا لم نشر الى بُعده عن الطبع أحياناً ، وقد تعوّدنا فى أبحاثنا كلها أن نكتفى بالحسن وحده وذلك نقص .

كان البحترى صلة بين أدب العراق وأدب الشام فكان رقيق الخيال غير لاه ، وكان يثقف شعره غير صانع . أما رقة خياله فقد رسمت صوراً ناطقة ، وأما تثقيفه فكثيراً ما يظهر فى خلال قصائده ، قال :

ان أيامه من البيض بيضٌ ما رأين المفارقَ السودَ سودا

وبين البيض والبيض جناس وبين البيض والسود طباق ، وفى البيت تثقيف يقرب من الصنعة ، وقال :

وما الناس الا واجدٌ غير مالك لما يبتغى أو مالكٌ غير واجد

وفيه العكس ، قال :

فليس الذى حللته بمحلل وليس الذى حرمته بحرام

وفى البيت طباق بين الحلال والحرام وفيه ارصاد ، ولكنه على نوعيه أقرب الى العاطفة من صاحبيه . قال ابن الجرجانى :

« ان البحترى لينزع من شماس المهر الصعب الجامح حتى يلين لك لين المنقاد المطيع » .

(٥) أثر به أبو تمام

والبحترى مدينٌ بصنعته لأبى تمام وقد أعجب الشاعر بأستاذه وسأله أن يوصيه فأوصاه « بتخير الاوقات واختيار الالفاظ والاستعانة بالشهوة للقول والتشبه بمن سلف ، الخ » .

فكان فى شعره ريح الصنعة كما كان فيه نسيم الرقة والطبع .

وقد بلغ من اعجابه بأبى تمّام أن سطا على بعض معانيه فأخذها أصحابُ أبى تمام ذريعة لتفضيله على البحترى ، قال أبو تمّام :

وما نفعُ مَنْ قد مات بالامس صادياً اذا ما سماء القوم طال انهمارُها

قال البحترى :

واعلم بأنَّ الغيثَ ليس بنافعٍ للناسِ ما لم يأتِ فى ابّانهِ

وقال أبو تمام :

واذا أراد الله نشرَ فضيلةٍ طُويتْ أتاح لها لسانَ حسودِ

فقال البحترى :

ولا تستبين الدهر موضع نعمة اذا انت لم تدلل عليها بحاسدِ

(٦) وصفُه صورٌ ناطقةٌ

البحترى ابن الطبيعة باسمها يتكلم وبلسانها يترجم والطبيعة ناطقة لمن يفهمها وبرة بمن هو برٌّ بها . قال يصف الربيع وكأننا نرى أشجاره تمايل أغصانه :

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكا من الحسن حتى كاد أن يتكلما
وقد نبَّه النوروز فى غلس الدجى أوائل وردٍ كنَّ بالامس نوَّما
يفتقها بردُ الندى فكأنه يبث حديثاً كان قبل مكتما
ومن شجر ردَّ الربيع لباسَه عليه كما نشَّرت وشياً منمنما
ورقَّ نسيم الريح حتى حسبته يجىء بأنفاس الأحبة نعما
فما يحبس الراح التى أنت خلها وما يمنع الأوتار أن تترنما

يصف البحترى الربيع فاذا هو فتاة حسناء ترنو ضاحكة حباً وحناناً والدنيا تضحك لمن يضحك لها ، وتحبّ من يحبها ، والطبيعة تبسم لمن يهواها وتحمل فى ثنايا أثوابها الجميلة السعادة لمن يطلبها عن طريقها المستقيم ، يضحك الربيع فيكاد يتكلم ، وأجمل الصور ما ظهرت الحياة بين ألوانها ، وأفضل الوصف ما تكلمت سطور شعره ، وهذا وصف البحترى صور ناطقة ضاحكة تتكلم .

ويتساقط برد الندى على أكمام الورد ينبهها آذار فتنفرج شفتاها قليلا كأنها تبثّ حديثاً كانت تكتمه وكأنها تضن به فلا يسمعه عذول أو واش .

ثم يخلع الربيع لباس الشجر عليه فكأنه وشى منمنم ويزيد فى جمال هذه الصورة وحلاوة وقعها جمال الكلمة وحلاوة جرسها فى ربيع الحياة .

ثم يرقّ النسيم فكأنه يحمل أنفاسَ الأحبة ، وكأنه يثير عواطف الشباب الملتهبة ويضرم شعوره القوى ، ويحرك أوتار قلبه الخفاق ، وأى فضل للشاعر اذا لم ينطق الطبيعة ويحرك أوتارَ عودها ؟

وفى هذا السرور ، وفى هذه النعمى ، وبين أحضان الطبيعة الضاحكة المتردية ثوب النشاط والجمال، وبين ربيع الحياة يسمعنا تغريد طيره، ويحمل الينا عبق أزهاره ويمتعنا بجمال نوره ويداعبنا النسيم مداعبته أوراق الاشجار، ويثير فينا السحر علائم القوة والنشاط، ماذا نتمنى وماذا نطلب غير راح نشربها وعود نسمع نغمات أوتاره ، ومغنية تنعمنا بصوتها ، وحسناء تلهبنا بجمالها، وأى فضل للشاعر اذا لم ينطق بكل لسان ويعبر عن شعور كل انسان ؟! والبحترى شاعر الطبيعة وكفى .

وقال يصف بركة بناها المتوكل :

تنصبُّ فيها وفود الماء عاجلة ... كالخيل خارجة من حبل مجريها
كأنما الفضة البيضاء سائلة ... مِن السبائك تجرى فى مجاريها
اذا علتها الصبا أبدت لها حبكاً ... مثل الجواشن مصقولا حواشيا
فحاجبُ الشمس أحياناً يضاحكها ... وديِّق الغيث أحياناً يباكيها
اذا النجومُ تراءت فى جوانبها ... ليلاً حسبتَ سماء ركبت فيها
لا يبلغ السمك المحصور غايتها ... لبعدِ ما بين قاصيها ودانيها
يعمن فيها بأوساطٍ مجنحةٍ ... كالطير تنفضّ فى جوٍّ خوافيها
محفوفة برياض لا تزال ترى ... ريش الطواويش تحكيه ويحكيها

وليس بين وصف البركة ووصف الربيع من الجمال الا ما بين الطبيعة والحضارة الماء كالخيل فى قوته ، وكالفضة الجارية فى صفاته ، حتى اذا علته الصبا حبكته درعاً منيعاً لو جمد، ولكنه درع حى يضحك لحاجب الشمس وما أشبه تلألؤ الماء بابتسامة الطبيعة تعانق أشعة الشمس ، فاذا عانقت البركة الغيث بكى ماؤها فلا يقل بكاؤه جمالاً عن ابتسامته ، واذا تراءت النجوم فيه ليلاً فكأنه السماء بلمعانها واشراق كواكبها واتساعها وكأننا نرى سماء لا ماء !

ثم يريد البحترى أن يرضى الخليفة فيبالغ فى حجم البركة ، ثم ينتقل الى وصف السمك فكأنه طير تنفض فى الجو خوافيها ، حتى اذا جاء يصف الرياض بعث بها الحياة فكأنها طاووس ببدائع ريشه وجمال ألوانه .

وقال يصف ايوان كسرى وقد زاره فرأى فيه صورة تمثل واقعة جرت بين الروم والفرس فأحياها وكأننا نرى لمعان السيوف وعراك الرجال وكأنهم أحياء خرس:

فاذا ما رأيت صورة انطا كية ارتعتَ بين روم وفرس
والمنايا موائل وأنوشر وان يزجى الصفوف تحت الدرفس
تصف العين أنهم جد أحيا ء لهم بينهم اشارة خرس
يقتلى فيهم ارتيابيَ حتى تتقرّاهم يداىَ بلمس

وقد أحيا البحترى صورة الجيوش حتى شك هو نفسه بها فأخذ يتقراهم باللمس لينزع شكه، ثم يصف الايوان فيقول:

عكست حظه الليالى وبات المش ترى فيه وهو كوكب نحس
فهو يبدى تجلداً وعليه كلكل من كلاكل الدهر مرس
مشمخرّ تعلو له شرفاتٌ رفعت فى رؤوس رضوى وقدس
لا بسات من البياض فما تبصر منها الا غلائل برس
ليس يدرى أصنع انس لجن سكنوه أم صنع جن لانس ؟!
وكأن الوفود ضاحين حسرى من وقوف خلف الزحام وخنس
وكأنّ القيان وسط المقاصير يرجعن بين حوّ ولعس

يصف البحترى الايوان فيبعث فيه الحياة، وأى فضل للشاعر اذا لم يحى الميت وينطق الجماد ؟

يرسم الايوان فاذا هو حى يبدى تجلداً رغم ما عليه من كلاكل مرساة، ويعلو مشمخراً فخوراً رغم ما أصابه من ذل ومن عز، ويزدهى مفتخراً بشرفاته التى تبعث فى قلوب الزائرين روح الاجلال والتعظيم والذكرى لو تنفع الذكري.

ثم يعجز البحترى على فنه أن يصور عجائب الايوان فاذا هى من صنع الجن، والجن مصدر الغرائب ومورد قوى من موارد الخيال، ثم يعود الى احياء كسرى وملكه وايوانه فاذا الوفود حسرى مزدحمة واذا القيان بين حوّ ولعس تغنينا نراهن ونسمعهن!

٧ — أسلوبه عربى ولفظه حلو سلس

أثرت به جنسيته وأثر به أبو تمام فكان أسلوبه عربياً جزلاً، وأثر به جو

العراق فكان عذباً دون تعمق فى المعنى ، وأثرت به الطبيعةُ فكانت ألفاظه حلوة سلسة تجرى مجرى الماء .

واذا عُدنا الى وصف بركة المتوكل رأينا جزالة العروبة على الصور الحضرية ، واذا التفتنا الى وصف الربيع راينا عدوبة ورقة على غير تعمق فى المعنى ، وحلاوة فى الألفاظ فكأنها الماء النمير . وقال :

ليشوقنى سحرُ العيون المجتلى ويروقنى وردُ الخدود الأحمرُ

وفى ذلك السحر حلاوة ، وفى تلك الخدود عذوبة ، وفى ذلك الانسجام جمال ، وفى تلك المزاوجة بين سحر العيون المجتلى وورد الخدود الأحمر رقة المياه ، وبين يشوقنى ويروقنى مزاوجة شامية وجزالة عربية . وقال :

قطعنا الليل لثماً واعتناقاً وأفنيناه ضمّاً والتزاما

وبين قطعنا وافنينا وبين لثماً واعتناقاً وضماً والتزاماً مزاوجة فى اللفظ وانسجام فى المعنى وقال :

ولم أر مثلينا ولا مثل شأننا نعذب أيقاظاً وننعم هجهدا

وبين نعذب ايقاظاً وننعم هجداً مزاوجة فى اللفظ على عذوبة وطبلق هو من آثار الثقيف .وقال :

فأحسن بنا والدمع بالدمع واشجٌ يمازجهُ والخدُّ بالخدِّ ملصقُ

وبين الدمع بالدمع واشج والخد بالخد ملصق مزاوجة فى اللفظ وانسجام فى المعنى كانسجام الدمع على الخد ،والبيت جزل وألفاظه منتقاه مختارة . وقال :

تطيب بمسراها البلاد اذا سرت فينعم رياها ويصفو نسيمها

وبين النعيم والصفاء مزاوجة وانسجام ، وبين الريا والنسيم مناسبة ، وفى البيت جزالة العروبة وحلاوة الحضارة .

هنا نمر
مدرس الادب فى كلية الشرق (طرطوس)